الفصل الأول

التعريف بالإمام القرافي

وفيه تمهيد ومبحثان

المبحث الأول: عصر الإمام القرافي

المبحث الثاني: حياة الإمام القرافي ومكانته العلمية ووفاته

obeikandl.com

تمهيد:

ترتاح النفوس كثيرًا إلى إقامة الحق والعدل، وانتشار الخير بين الناس، وائتلاف القلوب، واتحاد الصفوف في الأمم والمجتمعات، وبخاصة أمة الإسلام، لكن أنىَّ لنا بذلك وسنة الله التي لا تتبدل، ولا تتحول وقوع الاختلاف بين بني البشر، ودفع الناس بعضهم بعضًا، وتاريخ البشرية شاهد على أن الصراع بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، قديم منذ أن خلق الله السماوات والأرض، وسيظل ما بقي الليل والنهار؛ وذلك لأن الحق لا يظهر إلا بمعاداة الباطل له، وتلك سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

فمن أعظم مظاهر ظهور الحق والدين وبيان حقيقة أنباء المرسلين، ظهور المعارضين لهم من أهل الإفك المبين، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣][1].

ويقول الشاعر:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيبُ عَرْفِ العود[2]

---

(1) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٩) تحقيق: الأستاذ/ سيد عمران، ط/ دار الحديث - القاهرة- ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

(2) البيتان لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي المتوفى سنة ٢٣١هـ، ديوان أبي تمام بشرح محمد محي الدين عبد الحميد، (ص٢٤٤)، مكتبة محمد علي صبيح، مصر، ط/ الأولى، ١٤٨٧هـ-١٩٦٧م.

والقارئ لكتاب الله تعالى، يجد جدالاً لأهل الباطل عن باطلهم، ودفاعًا لأهل الحق عن دعوتهم، يجد ذلك عند أهل الباطل في قول الله تعالى: ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ [غافر: ٥]، ويجد دفاع أهل الحق في حجاج نوح لقومه، وحجاج إبراهيم، وسائر الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، وفرقٌ بين تمويه أهل الباطل، ودفاع أهل الحق؛ لأن أهل الباطل إذا طعنوا في الحق، ودافعوا عن باطلهم جعل الله ذلك في نحورهم، فبان الباطل برد أهل الحق، وعليه أثواب رفضه، وظهر الحق، ومعه أسباب قبوله.

«فالدين الحق كلما نظر فيه الناظر، وناظر عنه المناظر، ظهرت له البراهين وقوي به اليقين، وأشرق نوره في صدور العالمين، والباطل إذا جادل عنه المجادل، ورام أن يقيم عوده المائل، أقام الله تبارك وتعالى من يقذف بالحق على الباطل، فيدمغه فإذا هو زاهق»[(١)].

والصراع بين الحق والباطل منذ بدء الخليقة إلى الآن يأخذ صورتين:

الصورة الأولى: الصراع الذي يعتمد على القوة والعدد والعتاد.

الصورة الثانية: الصراع الذي يعتمد على دفع الحجة بمثلها، وتفنيد الشبهة بما يطفئ نارها، ويقضي عليها، وهو ما يسمي بالصراع الفكري[(٢)].

وديننا الإسلامي الحنيف يحتاج لأن يدافع عنه، على أساس من الأمرين، كيف وقد أمر الله بالأمرين، فقال عن الدفاع بالقوة: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال عن الدفاع

---

(1) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ٢١).

(2) يراجع: بين الإسلام والمسيحية لأبي عبيدة الخزرجي، ت. د/ محمد شامة (مقدمة المحقق) (ص٥) مكتبة وهبة، القاهرة، ط/ الثانية، بدون تاريخ.

بالحجة: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

يقول فخر الدين الرازي: «ليس المراد الجدال في فروع الشرع.. إنما هو الجدال في التوحيد، والنبوة، وهو مأمور به، ونحن مأمورون باتباعه لقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] فوجب كوننا مأمورين بالجدال عن الدين»[(١)]، وحاجة الدين إلى الدفاع عنه بالحجج، وإقامة البراهين أولى من حاجته إلى الدفاع عنه باليد؛ لأن النكاية في العدو بالبرهان واللسان، أوقع من نكاية السيف والسنان، وقد كان النبي ﷺ ينصب لحسان بن ثابت رضي الله عنه منبرًا في مسجده يجاهد المشركين بلسانه جهاد هجو.. وأين منفعة الهجو من منفعة إقامة الحجج والبراهين على صحة الإسلام، وإبطال حجج الكفار والمشركين وأهل الكتاب؟[(٢)].

ولأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل إلا بظهور حجة الحق، ودحض حجة الباطل، وإظهار الحق، وإبطال الباطل من حقوق الله تعالى علينا؛ لأننا بذلك وإن لم نرد صاحب الباطل إلى الحق، فإنا قد كشفنا شره وعداوته للناس، وهذا يكفي لأن يشعر المرء أنه قد أدى ما عليه تجاه دينه[(٣)].

---

(1) التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب: لفخر الدين الرازي، (٢/ ٨٣)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ الأولى، ١٤٢١هـ.

(2) يراجع: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام للقرطبي المحدث، المتوفى ٦٥٦هـ (ص٤٦)، ت د/ أحمد حجازي السقا - دار التراث العربي، القاهرة، بدون تاريخ، الجواب الصحيح: (١/ ٧٣).

(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ت د/ محمد إبراهيم الحفناوي، دار الحديث، القاهرة، ط/ الثانية، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم، (٤/ ١٢٧٦)، ت علي محمد الدخيل، دار العاصمة، الرياض، ط/ الثالثة، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

والدفاع عن الدين لابد أن يكون على أساس من العلم والبصيرة؛ لأن الذي لا يعرف كيف يقرر الحجة، ويفند الشبهة، إذا تصدى لذلك، كان ضره أقرب من نفعه، وكان كالذي يصلي وهو نائم، فلعله يذهب يدعو لنفسه، فيدعو عليها، كذلك هذا، لعله يذهب يقرر حجة فيجعلها شبهة، ولعله يذهب يفند شبهة، فيجعلها حجة للخصم لا عليه، يقول الإمام ابن تيمية في هذا المقام:

«كيف وقد جعل الله من يقضي بين الناس في الأموال والأعراض والدماء في النار، إذا قضى بغير علم؟ فكيف بمن يحكم في الملل، والأديان، وأصول الإيمان ... بغير علم؟»[1].

ولا يفوتني أن أضع بين يدي القارئ ما قاله الإمام ابن حزم في هذا الأمر، يبين أن الدفاع عن الدين واجب باللسان، كما هو واجب بالسنان، وأن دفاع اللسان أبقى، وأنه لا يكون إلا عن علم، وذلك قوله: «يقول الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] فالله قد أوجب الجدال في هذه الآية، وعلم فيها جميع آداب الجدال كلها من الرفق والبيان... وقال تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا سُبۡحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [يونس: ٦٨] ففي هذه الآية بيان أنه لا يقبل قول أحد إلا بحجة ... وأن من لم يأت على قوله بحجة، فهو مبطل بنص حكم الله تعالى، وأنه مفتر على الله وكاذب عليه بنص الآية.. وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

ولا غيظ أغيظ على الكفار والمبطلين من هتك أقوالهم بالحجة الصادعة،

(1) ينظر: الجواب الصحيح (١/ ٢٧).

وقد يهزم العساكر الكبار، والحجة الصحيحة لا تغلب أبدًا، فهي أدعى إلى الحق، وأنصر للدين من السلاح الشاكي.. والسيف مرة لنا، ومرة علينا، وليس كذلك البرهان، بل هو لنا أبدًا، ودامغ لقول مخالفينا، ومزهق له أبدًا.. وقد قتل أنبياء كثيرون، وما غلبت حجتهم قط»[(١)].

فالدماغُ عن الدين بإقامة الحجج إذن وظيفة العلماء العدول، فهم الهداة إلى الله، والدعاة إلى كلمته، والقوامون على دينه، والزائدون عن حرماته، الواقفون على مفترق الطريق، يرشدون الحيارى، ويبصرونهم أعلام الطريق[(٢)].

ولقد أحس علماء الإسلام بالعبء الملقى عليهم، فقاموا به خير قيام، ومن هؤلاء شيخنا القرافي صاحب الدراسة، وليس هو أول من نزل جلبة السبق، بل سبقه غيره، ولحقه آخرون، وتلك سنة الله أن يبقى في كل عصر من يدافع عن هذا الدين.

وإذا كنا نريد أن نعرف جهود الإمام القرافي في الدفاع عن العقيدة، فلزامًا علينا أن نعرف شيئًا عن حالة عصره الذي كان يعيش فيه، وعلى الخصوص حالته الدينية التي ظهر فيها العداء الديني، السائد بين أهل هذا العصر كما سنرى، وذلك لبيان تأثر الإمام القرافي بأحوال عصره من عدمه، وهل قام بما يجب عليه تجاه عقيدته أو لا. وذلك في الصفحات التالية.

---

(1) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم الأندلسي: (١/ ٢٢-٢٩)، دار الحديث، ط/ أولى، ١٤٠٤هـ.

(2) دراسات إسلامية، د/ محمد عبد الله دراز (ص١٢)، ت/ أحمد مصطفى فضلة، دار القلم للنشر والتوزيع، بالقاهرة، ط/ الخامسة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

obeikandl.com

المبحث الأول
عصر الإمام القرافي

وفيه أربعة مطالب

المطلب الأول: الحياة السياسية في عصر القرافي

المطلب الثاني: الحياة الاجتماعية في عصر القرافي

المطلب الثالث: الحياة العلمية في عصر القرافي

المطلب الرابع: الحياة الدينية في عصر القرافي

obeikandl.com

obeikandl.com

المطلب الأول
الحياة السياسية في عصر القرافي

عاش الإمام القرافي -رحمه الله تعالى- في الفترة ما بين ٦٢٦هـ إلى ٦٨٢هـ، وفي هذه الفترة شهدت مصر زوال دولة، وتأسيس أخرى، فالدولة الزائلة هي دولة بني أيوب، والتي خلفتها هي دولة المماليك البخرية.

وقد عاش الإمام القرافي في أواخر دولة الأيوبيين، وأوائل عصر المماليك، وبهذا يصح لنا القول: إن القرافي من مخضرمي الدولتين، وتمتاز هذه الحقبة التي عاشها القرافي بعدم الاستقرار السياسي في الجانب الداخلي؛ والخارجي على حد سواء، فهي تعد أسوأ فترة مرت على المسلمين منذ قيام دولتهم الأولى، أيام النبي ﷺ، ولا بد لفهم حالة عصر الإمام السياسية، أن نلقي ضوءًا على حالة البلاد الداخلية، والخارجية.

أما من الناحية الداخلية:

فقد عاش الإمام القرافي كما ذكرت في أواخر دولة بني أيوب، وأوائل دولة المماليك البحرية، وهذا يحتم علينا أن نذكر حالة الدولتين السياسية بشيء من الإيجاز.

أولاً: دولة بني أيوب:

تأسست دولة بني أيوب على يد الناصر صلاح الدين يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي، وذلك عقب استيلاء الفرنج على مصر، وكتابة الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين على مصر - إلى نور الدين زنكي - حاكم الشام وقتها مستغيثًا به من الفرنج، بعد أن عاثوا في الأرض فسادًا، وأحرقوا البلاد، وظلموا العباد، فما كان من نور الدين إلا أن أرسل قائدًا من قواده، وهو

أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين - وجعل في جيشه صلاح الدين - الذي خرج مكرهًا - لنجدة البلاد، ودخل جَيش أسد الدين مصر، وفر الفرنج من أمامه، ثم قلده الخليفة العاضد وزارة بلاده، ولكنه لم يكد يهنأ بها حتى وافاه أجله بعد شهرين من توليته الوزارة، وذلك يوم السبت الثاني عشر من جمادى الآخرة من سنة ٥٦٤هـ[(١)].

فاستوزر العاضد بعده صلاح الدين، ولَقَّبَهُ الملك الناصر، وما لبث أن مات الخليفة العاضد سنة ٥٦٧هـ، فاستتب الأمر لصلاح الدين في حكم مصر.

وقد سار صلاح الدين في الناس سيرة حسنة، فأسقط المكوس[(٢)] التي كانت مفروضة زمن الفاطميين، وأحسن إلى الناس، وأسقط المذهب الشيعي، ونشر المذهب السني، وأخذ في تقوية بلاده، فأمر ببناء الأسوار، وتقوية الأساطيل، وفرض نفوذه على البلاد.

وما لبث الملك العادل نور الدين زنكي أن مات، تاركًا ولدًا صغيرًا، وهو الملك الصالح إسماعيل، ولم يكُ صالحًا لحكم البلاد، نظرًا لصغر سنه، مما أطمع فيه الفرنج، وأثار عليه القواد، فاضطر صلاح الدين إلى الخروج إلى بلاد الشام إخمادًا لنار الفتنة، وردًا للفرنج عن بلاد الشام؛ فخرج إليها واستولى عليها مدينة مدينة، ثم أرسل أخاه توران شاه إلى اليمن؛ للقضاء على رجل ادعى النبوة

(1) يراجع: البداية والنهاية لابن كثير (١٢/ ٢٧٥)، وما بعدها ت د/ أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث، القاهرة ط/ الخامسة ١٤١٨هـ. تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص٤٤٤) وما بعدها ت/ محمد محي الدين عبد الحميد. مطبعة دار السعادة، مصر، ط/ أولى، ١٤٧١هـ.

(2) المكوس: جمع مكس، وهو الضريبة التي تؤخذ من بائع السلع، ويقال لجامع هذه الضريبة ماكس أو عَشَّار. يراجع: لسان العرب لابن منظور (٦/ ٢٠١-٢٠٢)، مادة مكس، دار صادر بيروت، ط/ الأولى، بدون تاريخ.

هناك، فسار إليه وقتله، واستولى على بلاد اليمن.

وبذا اتسعت دولة صلاح الدين واستقرت له الأمور الداخلية، فما كان عليه إلا أن يتجه إلى أعدائه الخارجيين قبل أن يبادؤه وقد فعل[١].

فأعد جيوشه، للغارة على بلاد الفرج التي على الشاطئ، وكانوا قد استولوا عليها من المسلمين، واستمرت الحروب بينه، وبينهم سجالاً من سنة ٥٧٠هـ إلى سنة ٥٨٣هـ، وفي هذه السنة كانت الوقعة الفاصلة بينه، وبينهم وهي وقعة حطين[٢]، يوم السبت الرابع عشر من ربيع الآخر، وفيها أوقع صلاح الدين بالفرج شر هزيمة، مما اضطرهم إلى الهروب إلى القدس فسار إليهم يستولي على مدنهم؛ مدينة مدينة، حتى التقى بهم في القدس في رجب من تلك السنة، واسترد مدينة القدس منهم في ليلة الإسراء والمعراج، بعد أن ظلت في أيديهم ما يزيد عن تسعين سنة[٣].

وبعد أن استقرت له الأمور داخليًا وخارجيًا، انتقل إلى ربه بعد صلاة الصبح يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر، سنة ٥٨٩هـ[٤].

وتولي بعده أولاده، وجرت بينهم حروب وعداوات، مما أضعف مملكة أبيهم، وأطمع فيها أعداءها، إلى أن تولي أخوه الملك العادل على مصر عام ست وتسعين

---

(1) يراجع البداية والنهاية: (١٢/ ٢٨٤-٢٩٩). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي: (٦/ ١٢-٢٤) المؤسسة المصرية للطباعة والنشر بدون تاريخ.

(2) حطين: بلدة على تل بين طبرية، وعكا، بينها وبين طبرية نحو فرسخين، بالقرب منها بلدة يقال لها: خيار بها قبر النبي شعيب عليه السلام، يراجع معجم البلدان، لياقوت الحموي: (٢/ ٢٧٤)، دار الفكر- بيروت- بدون تاريخ.

(3) يراجع: النجوم الزاهرة (٦/ ٢٧-٣٧)، تاريخ الخلفاء (ص٤٥٣).

(4) النجوم الزاهرة: (٦/ ٥٢).

وخمسمائة، فسار في البلاد سيرة أخيه صلاح الدين، واتسعت مملكته وقويت، ولكن بعد موته وزع البلاد على أبنائه، فأعطى لمعظم عيسى دمشق، وأعطى الأشرف موسى الشرق، وأعطى الملك الكامل محمد مصر، وبعد موته، تنازع أولاده ودارت بينهم خصومات، كما دارت بين أبناء عمهم من قبل، واستمر الأمر في عداء وشقاق بين ملوك بني أيوب؛ إلى أن ضعفت دولتهم، وسقطت بقتل آخر ملوكهم توران شاه ابن نجم الدين أيوب، وذلك في سنة ٦٤٨هـ[١].

ثانيًا: دولة المماليك البحرية:

في سنة ٦٤٧هـ استولى الفرنج على دمياط[٢]، والسلطان الملك الصالح نجم الدين ملك مصر مريض، فمات ليلة النصف من شعبان في تلك السنة، وأُخْفِي خَبَرُ موته، وأرسل إلى ابنه توران شاه، وكان خارج البلاد، فقدم وولي إمرة الجيش، وهزم الفرنج، واستقر له الملك، ولكنه أساء إلى مماليك أبيه، فدبروا قتله فمات مقتولاً في المحرم سنة ٦٤٨هـ.

وتولت بعده زوج أبيه، شجرة الدر، ولكن لم يُعْجِبِ الناسَ ذلك، فعزلت وتولي مكانها أحد مماليك، نجم الدين أيوب المعز أيبك وبذا تأسست دولة المماليك والتي امتاز عهدها بأن ملوكها ساروا على سيرة الأيوبيين، وأخذوا بسياستهم التي قوامها الجهاد، وقد بقيت دولة المماليك (البحرية والشراكسة) في الحكم قرابة القرنين من الزمان، حتى انتهى حكمها باستيلاء الأتراك العثمانيين على السلطة سنة ٩٢٢هـ[٣].

---

(1) يراجع: البداية والنهاية (١٣/ ٢٩) وما بعدها.

(2) دمياط مدينة قديمة من مدن مصر تقع بين النيل والبحر الأبيض المتوسط، ويعرف فرع النيل الذي يمر بها بفرع دمياط ، يراجع معجم البلدان: (٢/ ٤٧٢).

(3) يراجع النجوم الزاهرة: (٦/ ٣٧٢-٣٧٥)، (٧/ ٤٨)، تاريخ الخلفاء: (٤٦٥، ٤٦٦)، =

فما سبق يدل على أن عصر الإمام القرافي، كان غير مستقر سياسيًا من الناحية الداخلية سواء، كان في مصر أو في غيرها.

وأما من الناحية الخارجية:

فقد حدث في العالم الإسلامي في الفترة التي عاش فيها الإمام القرافي حدثان عظيمان، كان لهما أبلغ الأثر في توجيه الحياة السياسية في هذا العصر، وكان لهما أبلغ الأثر في نفوس الناس، لاسيما العلماء منهم، وهذان الحدثان هما:

- ظهور التتار وإسقاطهم الخلافة وزحفهم جهة مصر.
- ظهور الصليبيين ومداهمتهم مصر والشام.

أولاً: ظهور التتار:

كان ظهور التتار عام ٦١٧هـ على يد جنكيز خان، الذي كان يطمع أن يكون سلطانًا على الأرض كلها، وقد استطاع جنكيز خان أن يقود القبائل المغولية من أطراف الصين، ثم يغير على بلاد تركستان[١] ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر[٢] وخراسان[٣] ويستولي على كل هذه البلاد في أقل من سنة، ثم تجاوز هذه

=

شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد (٤/ ١٠٢)، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

(1) اسم جامع لجميع بلاد الترك: معجم البلدان: (٢/ ٣٢).

(2) هو نهر سيحون -بفتح أوله وسكون ثانيه- نهر كبير مشهور على حدود بلاد الترك، بعد سمرقند، يجمد في الشتاء، إذا أطلق ما وراء النهر كان هو المقصود. يراجع معجم البلدان: (٢/ ٢٩٤).

(3) بلاد واسعة، أول حدودها مما يلي العراق قصبة جوين، وبيهق، وآخر حدودها مما يلي الهند صخازستان، وسجستان، وهذه البلاد على حدودها وليست منها، من بلادها: نيسابور، سرخس. يراجع: معجم البلدان: (٢/ ٣٥٠).

البلاد إلى الري[١] وحدود العراق[٢].

وما لبث أن مات جنكيز خان، فتولى بعده حفيده هولاكو بن تولي خان، وكان ذا همة عالية في الفتوحات، فاتسعت ممالكه، وكثرت جيوشه من المغول والتتر، وكان الخليفة في بغداد يومئذ المستعصم بالله، وكان وزيره ابن العلقمي ممالئًا للتتار، يكاتبهم -خفية- أن يسيروا إلى بغداد، وكان يطمع أن يكون خليفة علويًا، بعد إسقاط الخلافة العباسية، وقد مناه التتار بذلك.

فركب هولاكو في جيوشه قاصدًا بغداد، واستولى عليها، وقتل الخليفة المستعصم، بعدما أعطاه الأمان، واستمر القتل والنهب في بغداد قرابة الأربعين يومًا، ولم ينج من أهلها إلا من اختفى في نهر أو قناة، وكان قتل الخليفة سنة ٦٥٦هـ.

وبعد خراب بغداد توجه جيش التتار إلى الشام، فاستولى عليها كلها، وبعد ذلك لم يبق أمامه سوى مصر، وكان ملكها يومئذ سيف الدين قطز، فكتب إليه هولاكو: «أن لا قبل لكم بنا، فما عليكم إلا الاستسلام»، لكن سيف الدين قطز لم يجبن أمام تلك التهديدات، فأعد جيوشه، والتقى والتتار في عين جالوت[٣] وأوقع بهم شر هزيمة، وانتصر المسلمون بفضل الله، وقتلوا من التتار مقتلة عظيمة، وولى التتار الأدبار، وذلك في ٦٥٨هـ[٤].

---

(1) الري: قرية قريبة من خراسان، وهي منسوبة إلى جبل الري، يراجع: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، لعبد الله البكري الأندلسي: (٢/ ٦٩٠)، ت/ مصطفى السقا، دار الكتب، ط/ الثالثة، ١٤٠٣هـ.

(2) يراجع: النجوم الزاهرة (٦/ ٢٤٨-٢٥٢).

(3) بلدة صغيرة بين بيسان وطرابلس من أعمال فلسطين ينظر: معجم البلدان: (٤/ ١٧٧).

(4) يراجع: النجوم الزاهرة (٧/ ٤٧-٥٥)، تاريخ الخلفاء (ص٤٧٠) وما بعدها، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) للشيخ محمد الخضري: (٢/ ٥٤٢-٥٥٩) المكتبة التوفيقية، القاهرة، د ت.

وحتى يعلم القارئ مدى خطورة التتار، أذكر ما جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي حيث يقول:

«حادثة التتار من الحوادث العظيمة، والمصائب الكبرى، التي عقمت الدهور عن مثلها، وعمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال القائل: إن العالم منذ خلقه الله إلى الآن لم يبتلوا بمثلها، لكان صادقًا»[(١)].

ولقد من الله تعالى على ملك التتار أبي سعيد بن خربندار بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولي بن جنكيز خان بالدخول في الإسلام، وتبعه عدد كثير من التتار، فأعز الله به أهل السنة في زمانه، ولم تقم للتتار من بعده قائمة[(٢)].

ثانيًا: الصليبيون:

كان ظهور الصليبيين واعتداؤهم على بلاد المسلمين -لا سيما الشام ومصر- قبل ظهور التتار بكثير، وقد سبق فيما تقدم أن سبب قدوم صلاح الدين إلى مصر عام ٥٦٤هـ، هو استيلاء الصليبين على مصر وكان ذلك قبل ظهور التتار على بلاد المسلمين، ولا سيما بغداد بحوالي قرن من الزمان، وقد استمرت غارات الصليبيين على مصر، والشام قرابة قرنين من الزمان، إلى أن طردوا من مصر بعد هزيمتهم أمام توران شاه بن نجم الدين أيوب عند دمياط، سنة ٦٤٨هـ، وطردوا من الشام على يد الملك الأشرف خليل بن المنصور بن قلاوون حاكم مصر سنة ٦٩٠هـ، وبطردهم استولى المسلمون على عكا، وجميع السواحل التي كانت بأيديهم من مدد متطاولة ولم يبق لهم فيها حجر واحد، ولله الحمد والمنة[(٣)].

---

(1) تاريخ الخلفاء: (ص٤٧٠).

(2) ينظر البداية والنهاية: (١٤/ ٨٩).

(3) يراجع: تاريخ الخلفاء: (ص٤٦٥).

وبعد:

فقد استبان أن الفترة التي عاشها الإمام القرافي -رحمه الله تعالى- لم تكن الحياة السياسية مستقرة فيها، لا في الداخل ولا في الخارج.

والسؤال الذي يفرض نفسه هو: هل تأثر الإمام القرافي بتلك الحالة؟ وهل أثر فيها؟

والجواب:

إن الإمام رحمه الله تعالى لا بد أن يكون كغيره، تأثر بالهوان الذي كان عم البلاد، ولا سيما حادث سقوط بغداد، ولا بد أن يكون قد تجرع مراره محاربة الصليبيين للمسلمين، واستيلائهم على بلادهم ولكن الله أقر عينه بنصرة دينه، وهزيمة التتار، وطرد الصليبيين.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لما استولت جيوش التتار والصليبيين على البلاد، فر كثير من العلماء إلى مصر طلبًا للأمان، وخوفًا من ضياع ما عندهم من علم، أمثال: العز بن عبد السلام، وابن الحاجب، والخُسْرَوشاهي وغيرهم، فكان هذا سببًا في تلقي القرافي العلم على علماء لم يرحل إليهم بل ساقهم الله إلى بلاده، فكان لذلك أثره في شخصية الإمام القرافي العلمية على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

هذا عن تأثره، وأما عن تأثيره، فالإمام القرافي، وإن لم ينل شرف الدفاع عن الدين بالسيف، فقد ناله بما كان يفعله من تصديه للطاعنين في الإسلام، ففي هذه الفترة كانت شوكة اليهود والنصارى قوية، وكانوا يطعنون في الإسلام بكتاباتهم، ليصرفوا الناس عنه، فما كان من القرافي إلا أن تصدى للرد على كتابات هؤلاء وخير دليل على ذلك ما تركه الإمام من كتب تحمل الرد عليهم

والتي منها:

الأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة لليهود والنصارى، وأدلة الوجدانية في الرد على النصرانية. وغيرها مما تناثر في طوايا كتبه ومؤلفاته الأصولية والتي عنى فيها ببعض ما يتعلق بأهل الشرائع الأخرى التي كان لها وجود في المجتمع الإسلامي، وسنطلع على إشارة لذلك في المبحث التالي عند الحديث عن عصر الإمام في جانبه الاجتماعية في السطور القادمة...

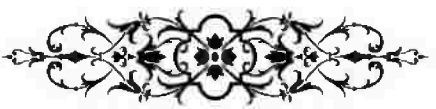

obeikandl.com

المطلب الثاني
الحياة الاجتماعية في عصر القرافي

المطالع لأحوال المجتمع في عصر الإمام القرافي، يستلفت نظره مظهران بارزان يكادان يكونان متلازمين، وقد ظهر أثرهما في الإمام القرافي.

المظهر الأول: أنه كان يعيش فيه كثير من الأجناس، المتباينة في العقائد، والعادات والتقاليد، فقد كان يضم المجتمع الإسلامي آنذاك أقوامًا من الأتراك، والمصريين، والشاميين، والعراقيين، واليهود والنصارى وغيرهم.

ويرجع السبب في ذلك، ولا سيما في مصر إلى ما ذكره المقريزي في كتابه: «المواعظ والاعتبار» حيث يقول:

«وأما سكان أهل مصر، فأخلاط من الناس مختلفو الأصناف والأجناس، من قبط، وروم، وعرب، وحبشان، وغير ذلك من الأصناف.. والسبب في ذلك: تداول المالكين لها، والمتغلبين عليها»[1].

المظهر الثاني: أنه كان هناك كثير من الاضطرابات، نتيجة للخلافات المذهبية، والمعتقدات الدينية، ويرجع ذلك إلى كثرة العصبيات الناتجة عن اختلاف الأجناس، بالإضافة إلى وجود عدد من الفرق الإسلامية التي انتشر أمرها، وزاد خطرها، وسيأتي مزيد بيان لذلك عند الحديث عن حالة المجتمع الدينية إن شاء الله تعالى.

وأي مجتمع، لا بد أن يكون فيه طبقات من الناس؛ إذ جرت سنة الله أن

---

(1) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط) للمقريزي: (١/ ١٤٦)، ت د/ محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة ط/ الأولى: ١٩٨٨م.

يجعل الناس متفاوتين في القوة، والضعف، والعلم، والجهل، والحذاقة، والبلاهة، والشهرة، والخمول، لأنه لو سوى بينهم في كل هذه الأحوال، لأفضى ذلك إلى خراب العالم، وفساد نظام الدنيا[١].

وإذا كان المجتمع الذي عاش فيه الإمام القرافي مكونًا من طبقات، فلا بد أن يكون لكل طبقة ما يميزها من الوظائف والأوصاف، وهذا ما ندع السطور الآتية تحدثنا عنه:

أولاً: طبقة الحكام ومن يعاونهم:

تتكون هذه الطبقة من الخليفة، أو السلطان، وحاشيته التي منها الوزراء، والأمراء، وكبار القادة والموظفين، والقضاة، ورجال الحسبة، والشرطة، ومن في مستواهم، وأصحاب هذه الطبقة في أي عصر من العصور لهم النفوذ، والغني، والترف؛ بسبب الرواتب العالية التي تكفل لهم من بيت مال المسلمين. فعاشوا عيشة هنيئة، وانغمسوا في اللهو، والترف والمجون[٢].

وبخاصة في عصر المماليك، إذ ازدهرت التجارة بمصر، وزادت ثروة البلاد، لما اعتني السلاطين بالزراعة، والتجارة، فانغمسوا في الترف والبذخ، وأكثروا القيان، والعبيد، فكان الواحد منهم يملك المئات من الإماء والموالي.

والذي يدل على ذلك: أنه لما طلب الظاهر بيبرس من الإمام النووي أن يفتي بجواز أخذ مال الرعية للاستعانة به على قتال التتار، فامتنع معللاً بقوله:

---

(1) يراجع: التفسير الكبير (٢٧/ ١٨٦).

(2) يراجع: تاريخ الإسلام السياسي، د/ حسن إبراهيم (٤/ ٦٢٥)، دار النهضة المصرية، القاهرة ط/ السابعة ١٩٦٥م.

سمعت أن عندك ألف مملوك، كل مملوك له حياصة[١] من ذهب، وعندك مائة جارية، لكل جارية حقو[٢] من الحلي، فإذا أنفقت ذلك كله، وبقيت مماليكك بالصوف بدلاً من الحوائص، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي، أفتيت بأخذ المال من الرعية[٣].

ثانيًا: طبقة العلماء ورجال الدين:

وهؤلاء كانوا فريقين: فريق آثر الآخرة وما عند الله، فأخذ يصدع بالحق، وينصح الحكام، ويحذرهم مغبة التلاعب، ومجانبة الشرع الحنيف، ويبين لهم ما ينبغي أن يسيروا عليه، ومن أمثال هؤلاء العز بن عبد السلام، والنووي، وغيرهما، فقد كانوا حربًا على الباطل، وأهله، وما فتئوا أن يبينوا للناس ما وقع فيه الحكام من أخطاء كبيرة، الأمر الذي أقلق الحكام، وزلزل أقدامهم حتى قال الظاهر بيبرس لبعض خواصه لما رأى جنازة العز بن عبد السلام لم يستقر ملكي إلا الساعة؛ لأنه لو أمر الناس فيما أراد لبادروا إلى امتثال أمره[٤].

وأما الفريق الآخر: فقد غلب عليهم الطمع في الدنيا، وحب الجاه، والمكانة عند السلطان، فأخذوا يترددون إليهم، ويوافقونهم في الحق والباطل، وكانوا يجرون الفتوى حسب أهواء الولاة، ولذا لم يكن لهم وزن عند الناس، ولا مكانة

(1) الحياصة: سير طويل يكون في الحزام. لسان العرب (٧/ ٢٠) مادة: (حوص).

(2) الحقو: بالفتح موضع الإزار، ثم توسعوا فيه حتى سموا الإزار الذي يشد على العورة حقوًا، التعريفات للجرجاني (ص٢٨٩). ت/ إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي - بيروت ط/ الأولى، ١٤٠٥هـ.

(3) يراجع: حسن المحاضر في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي (٢/ ٩٤). مطبعة الموسوعات باب الخلق، مصر لصاحبها إسماعيل حافظ.

(4) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٢/ ١٠٩). ت د/ عبد الحافظ خان، العلمية، بيروت، ط/ الأولى، ١٤٠٧هـ.

في قلوب العامة[١].

ثالثًا: العامة:

وهؤلاء هم الذين يمثلون السواد الأعظم من المجتمع، وتتكون هذه الطبقة من التجار، والصناع، والزراع، والعمال، وأصحاب الحرف، وغير ذلك.

وكانت حياتهم أقرب إلى الفقر، وكثيرًا ما كانوا يعانون من المظالم، والمكوس التي كانت تفرض عليهم، وتثقل كاهلهم.

رابعًا أهل الذمة:

وهم اليهود والنصارى، الذين فضل كثير منهم العيش في ظل الدولة الإسلامية؛ أملاً في الخلاص من اضطهاد الدولة الرومانية، وهذه الطبقة شاركت المسلمين في دفع عجلة الحياة وتقدم البلاد، فشاركت في الصناعة، والزراعة، وكان لهم دور مهم في التجارة، مما حقق لهم أرباحًا طائلة[٢].

ولا ريب أن الإمام القرافي رحمه الله تعالى كان قد تأثر بتلك الحياة، وأثر فيها.

أما عن تأثره بها: فهو وإن كان من طبقة العلماء، إلا أنه كان يعاني حياة الفقر كعامة الناس، ويدل على هذا، أنه كان كثيرًا ما يتمثل بهذين البيتين:

عتبت على الدنيا لتقديم جاهل وتأخير ذي علم فقالت خذا لغددا
بنو الجهل أبنائي وكل فضيلة فأبناؤها أبناء ضرتي الآخرة[٣]!

---

(1) ينظر: حسن المحاضرة (٢/ ٩٤).

(2) يراجع تاريخ الإسلام السياسي (٤/ ٦٢٧).

(3) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون المالكي (ص٦٦) العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

وأما عن تأثيره:

فلا ريب أنه كان من الفريق الأول من العلماء الذين آثروا الآخرة على الدنيا، ولم لا! وشيخه العز بن عبد السلام؛ فقد أخذ عنه أكثر علومه.

وقد وقف الإمام القرافي مدافعًا عن الدين ضد ما يثيره أعداؤه من الطبقات غير المسلمة، فقارعهم بالحجج القوية، وألزمهم بالبراهين القاطعة، وكان يقوم كل معوج يوجه ضد الإسلام، كما سنقف عليه عند ولوج قضايا ومسائل هذا البحث، حتى ليجعلنا ذلك نتساءل أكان الجو العلمي في عصره مساعدًا أما معاندًا، وهذا يسلمنا إلى البحث الثاني...

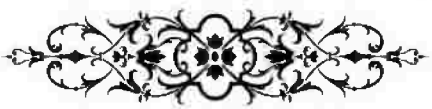

obeikandi.com

المطلب الثالث
الحياة العلمية في عصر القرافي

من يُمن الطالع أن الحياة العلمية في عصر القرافي لم تكن كسابقتيها، بل كانت أحسن حالاً فهما في الرواج والازدهار، رغم ما تعرض له المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت من نكبات الصليبيين، وغارات التتار، وما كان يموج به من اضطرابات وخلافات.

وهذا الازدهار لم يكن في مصر وحدها، بل كان في العالم الإسلامي أجمع، لكن نالت مصر منه الحظ الأوفى، والنصيب الأكبر.

وللحديث عن الحياة العلمية في هذا العصر، لا بد أن نلقي الضوء على حالتي العصرين الأيوبي والمملوكي العلمية، ثم عن أهم دور العلم آنذاك.

أما عن حالة العصرين العلمية:

ففي عصر الأيوبيين: كان الاهتمام بالعلم واضحًا، والحياة العلمية بدأت في النمو والازدهار، فقد خلف الأيوبيون الفاطميين في حكم مصر، وبلاد الساحل، والفاطميون لم تكن الحياة العلمية مزدهرة زمانهم إلا ما يتصل بالمذهب الشيعي، فلم يكونوا يهتمون بالعلم والعلماء إلا ما يتصل بمذهبهم.

فلما انقرضت دولة الفاطميين على يد السلطان صلاح الدين، أبطل مذهب الشيعة، وأقام المذهب السني، ولا سيما المذهب المالكي والشافعي، وأغلق الجامع الأزهر الذي كان يدرس فيه المذهب الشيعي[1].

واقتدى صلاح الدين بالملك العادل نور الدين محمود زنكي، فإنه بنى بديار

(1) يراجع: الروضتين في أخبار الدولتين، لأبي شامة المقدسي (٢/ ٦٩)، ت إبراهيم الزيبق، الرسالة -بيروت- ط/ أولى، ١٩٩٧م، البداية والنهاية (١٢/ ٢٨٤).

دمشق وحلب، وأعمالهما عدة مدراس للشافعية، والحنفية، فبنى لكل من الطائفتين مدرسة بمصر.. ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين في بناء المدارس بالقاهرة، ومصر أولاده وأمراؤه، ثم حذا حذوهم من ملك مصر بعدهم[١].

والذي حرك صلاح الدين إلى اهتمامه، بالعلم، والعلماء أنه بالإضافة إلى قصده وجه الله تعالى، كان يحب العلم وله فيه باع، قال ابن كثير عنه.

«وصلاح الدين لديه من الفضائل، والفوائد، والفرائد في اللغة والأدب، وأيام الناس حتى قيل: إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها، وكان يفهم ما يقال لديه من البحث، والمناظرة، ويشارك في ذلك مشاركة قوية حسنة.. وكان يحب سماع القرآن والحديث والعلم، ويواظب على سماع الحديث حتى بين صفوف القتال، وكان يفتخر بذلك، ويقول: هذا موقف لم يسمع أحد في مثله حديثًا»[٢].

ولم يكن هذا دأب صلاح الدين وحده، بل هو دأب سائر ملوك دولة بني أيوب التي ولد فيها الإمام القرافي.

فهذا صاحب مصر وقت ولادة الإمام القرافي -الملك الكامل محمد، قد كان صحيح الإسلام، معظمًا للسنة، وأهلها محبًا لمجالسة العلماء ... يبيت عنده كل ليلة جمعة جماعة من العلماء الفضلاء، يشاركهم ويباحثهم، ويسألهم عن المواضع المشكلة من كل فن، وهو معهم كواحد منهم، وبنى بالقاهرة دار للحديث، ورتب لها وقفًا جيدًا[٣].

فهذه حال صلاح الدين مؤسس الدولة، والملك الكامل واسطة عقدها،

---

(1) المواعظ والاعتبار (٣/ ٤٣٧).

(2) يراجع: البداية والنهاية: (١٣/ ٦، ٧).

(3) يراجع: البداية والنهاية: (١٣/ ١٧١)، شذرات الذهب: (٣/ ١٠٧٣).

وأما عن أخر ملوكهم[١] وهو الملك الصالح نجم الدين أيوب، فيقول عنه ابن كثير: (وفي سنة ٦٣٩هـ شرع الصالح أيوب في بناء المدارس بمصر)[٢].

ولم يكن هذا حال ملوك مصر وحدهم، بل شاركهم في ذلك ملوك الشام من بني أيوب، فهذا المعظم عيسى كان عالمًا فاضلاً في الفقه.. وكان يحفظ مفصل الزمخشري، وكان قد أمر أن يجمع له كتاب في اللغة يشمل أكثر معاجم اللغة، وأمر أن يرتب له المسند[٣]، وقد كان ابنه[٤] عالمًا بعلوم الأوائل وكان تلميذًا للخُسْرَوْشاهي شيخ القرافي.

ودولة كهذه، يهتم ملوكها بالعلم، يشاركون فيه أهله، لا بد أن يكون تجارة العلم فيها رائجة، ولاسيما أن الناس على دين ملوكهم.

وفي عصر المماليك: والذي قضى فيه الإمام القرافي ما يقرب أو يزيد عن ثلاثة عقود ونصف من الزمان، فقد كانت الحياة العلمية في مصر في هذه الفترة أحسن بكثير منها أيام الأيوبيين، وذلك للأسباب الآتية:

١- عناية سلاطين المماليك، بالعلم والعلماء أكثر من سابقيهم بسبب أنهم نشأوا في دولة عربية، لا يعرفون لهم تاريخًا، يتعصبون له، وكانوا يحكمون شعوبًا تتعصب للإسلام فتقربوا إلى هذه الشعوب، بالعناية بعلوم الإسلام، وبالعطف

---

(1) اعتبرته آخر ملوكهم، وإن كان ملك بعده ابنه توران شاه؛ لأنه يعتبر آخر الخلفاء الفعليين؛ لأن توران شاه لم يملك بعده كثيرًا ولم تكن له إصلاحات.

(2) البداية والنهاية: (١٣/ ١٧١).

(3) البداية والنهاية: (٣/ ١٤١).

(4) هو الملك الناصر داود بن المعظم عيسى المتوفى ٦٥٥هـ، يراجع: البداية والنهاية (١٣/ ٢٢٤).

على العلماء، والتشجيع على التأليف[١].

٢- هجرة العلماء إلى مصر، بعد سقوط بغداد وبلاد الشام في أيدي التتار؛ طلبًا للأمان، وحفاظًا على ما لديهم من علوم.

٣- شعور العلماء في هذا العصر بمدى المسئولية الملقاة عليهم في إعادة ما فقده المسلمون من تراث بعد كارثة بغداد، فأقبلوا على التأليف، والتدريس، مما كان له بالغ الأثر في الحياة العلمية.

والذي يدلنا على أن الحياة العلمية في هذا العصر كانت ثرية هو أن المماليك أنشأوا نحوًا من أربعين مدرسة، إضافة إلى ما كان أنشأه الأيوبيون، وأوقفوا عليها الأوقاف[٢].

وأما عن أهم دور العلم فهي:

أولاً: المساجد:

١- **مسجد عمرو بن العاص**: ويقال له المسجد العتيق، وهو أول مسجد أسس بديار مصر، بناه عمرو بن العاص في سنة ٢٦هـ، وقد جعلت فيه بعد ذلك زوايا لتدريس الفقه منها: زاوية يقال لها: الشافعية، وزاوية يقال لها المجدية، والزاوية الصاحبية وغيرها.

وكان بمسجد عمرو قبل سنة ٧٤٩هـ بضعًا وأربعين حلقه؛ لإقراء العلم،

---

(1) الأدب العربي وتاريخه (ص١٥٥-١٥٦)، د/ علي محمد حسن العماري، د/ محمد محمد خليفة، مطابع المعاهد الأزهرية، ١٤٢٥هـ.

(2) الأدب العربي وتاريخه: (١٥٣-١٥٦).

لا تكاد تبرح منه[١].

٢- **الجامع الأزهر**: أنشأه جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي عام ٣٥٩هـ، وكمل بناؤه ٣٦١هـ، وكان السلاطين يهتمون به أيما اهتمام، فأقاموا به مقاصير[٢]؛ لتدريس العلم، وجعلوا له أوقافًا، وقد ظل الجامع الأزهر -منذ فتحه الظاهر بيبرس- بعد أن أغلقه صلاح الدين؛ لتدريس المذهب السني، معقلاً للعلم، وملجأ لطلابه، يؤدى رسالته في نشر العلوم الشرعية، والعربية[٣] إلى الآن.

هذا بالإضافة إلى غيرهما من المساجد التي كان لها دور هام في الحياة العلمية، مثل جامع المدرسة الصالحية، وجامع مدرسة الظاهر برقوق، وجامع المدرسة الحجازية، وغير ذلك.

ثانيًا: المدارس:

كثرت المدارس في عصر الإمام القرافي، مما كان له الأثر البالغ على الحياة العلمية في هذا العصر، ومن هذه المدارس:

١- **المدرسة الناصرية**: بناها السلطان صلاح الدين، بجوار مسجد عمرو بن العاص، في المحرم ٥٦٦هـ وجعلها مدرسة للشافعية، وهي أول مدرسة

---

(1) يراجع: المواعظ والاعتبار (٣/ ١٤٤، ١٦٩، ١٧٠)، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون د/ سعاد ماهر محمد: (١/ ٦١) وما بعدها، ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بدون تاريخ.

(2) المقاصير، جمع مقصورة، والمقصورة هي مقام الإمام أي المحراب، لسان العرب: (٥/ ١٠٠) مادة قصر.

(3) يراجع المواعظ والاعتبار (٣/ ٢١٣) وما بعدها، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون (١/ ١٩٤).

بنيت بديار مصر[١].

٢- **المدرسة القمحية**: بجوار مسجد عمرو بن العاص، كانت دارًا يباع فيها الغزل، فهدمها صلاح الدين، وأنشأ موضعها مدرسة للمالكية في سنة ٥٦٦هـ، ورتب فيها أربعة من المدرسين، وهذه المدرسة كانت أجل مدرسة للفقهاء المالكية، وكان لها ضيعة بالفيوم يتحصل للفقهاء منها قمح يفرق بينهم، ولذا عرفت بالمدرسة القمحية[٢].

٣- **المدرسة القطبية**: أنشأها أحد أمراء صلاح الدين، قطب الدين خسرو بن تليل بن شجاع[٣]، بالقاهرة سنة ٥٧٠هـ، وجعلها مدرسة للشافعية[٤].

٤- **المدرسة الفاضلية**: بناها القاضي الفاضل[٥] بجوار داره سنة ٥٨٠هـ وجعلها للشافعية، والمالكية، وجعل فيها قاعدة للإقرار، ووقف عليها جملة

---

(1) المواعظ والاعتبار: (٣/ ٣٣٩).

(2) المواعظ والاعتبار: (٣/ ٤٣٩).

(3) هو قطب الدين خسرو بن تليل بن شجاع أبن أخي أبي الهيجاء الهذباني صاحب إربل، كان من كبار قادة نور الدين محمود الملقب العادل، وكان في جيش أسد الدين شيركوه، ولما مات طلب الوزارة في مصر لنفسه، وما نالها، ثم صار من أكبر قواد صلاح الدين توفي بعد سنة ٥٧٠هـ، يراجع: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان (٧/ ١٥٣)، ت: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط/ الأولى، ١٩٩٤م، النجوم الزاهرة: (٦/ ١٦).

(4) المواعظ والاعتبار: (٣/ ٤٤٣).

(5) أبو المجد عبد الرحيم بن علي بن الحسن البيساني، ولد بعسقلان سنة ٥٠٢هـ، ثم انتقل إلى مصر، كان من وزراء صلاح الدين ومقربيه، وكاتب ديوان الإنشاء في دولته، وكان صلاح الدين يقول: ظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل، توفي بمدرسته بالقاهرة في ربيع الآخر ٥٩٦هـ، يراجع البداية والنهاية (١٣/ ٣١) وما بعدها، الأعلام (٣/ ٣٤٦).

عظيمة من الكتب في سائر العلوم، وكانت هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة وأجلها[١].

٥- **المدرسة السيفية**: بناها سيف الدين عبد الله بن علي بن شكران سيف الإسلام طغتكين بن أيوب -أخو صلاح الدين- بالقاهرة قبل سنة ٥٩٣هـ[٢].

٦- **المدرسة الفخرية**: أسسها بالقاهرة الأمير الكبير فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومي أستاذ الملك الكامل محمد، وكان الفراغ منها سنة ٦٢٢هـ[٣].

٧- **المدرسة الفائزية**: أنشأها الصاحب شرف الدين هبة الله بن صاعد بن حبيب الفائزي[٤]، سنة ٦٣٦هـ، وجعلها للشافعية[٥].

ولم يكن الأمر مقصورًا على المساجد والمدارس في نشر العلم، بل كانت هناك خزانات الكتب، والمكتبات الزاخرة بأمهات الكتب في شتى العلوم والفنون، سواء كانت ملحقة بالمدارس أو مستقلة، كما كان هناك خارج مصر مراكز للعلم، ومدارس في بقية أنحاء العالم الإسلامي، تؤدي دورها في نشرها

---

(1) المواعظ والاعتبار: (٣/ ٤٤٤).

(2) المواعظ والاعتبار: (٣/ ٤٤٩).

(3) المواعظ والاعتبار: (٣/ ٤٤٨).

(4) هبة الله بن صاعد شرف الدين الفائزي، كان نصرانيًا ثم أسلم، وخدم الملك الفائز إبراهيم بن أبي بكر، ونسب إليه، وخدم بعده الملك الكامل، ثم المالك الصالح، واستوزره المعز أيبك، وبعده تقلد الوزارة أيامًا لابنه المنصور، ثم قبض عليه، ومات في السجن مخنوقًا سنة ٦٥٥هـ، يراجع: البداية والنهاية: (١٣/ ٢٣٢)، الأعلام: (٨/ ٧٢-٧٣).

(5) المواعظ والاعتبار: (٣/ ٤٤٢).

الثقافة الإسلامية ففي المغرب الإسلامي حلقات في قرطبة[١] وغرناطة[٢] والقيروان[٣] وفي المشرق نهضة في تبريز[٤] وشيراز[٥]، وطوس[٦]، بالإضافة إلى ما كانت تقوم به مدارس دمشق وبغداد[٧].

ولقد أثمرت دور العلم ثمارها، فأخرجت لنا علماء برزوا في هذا العصر، وصارت بمصنفاتهم الركبان أمثال: ابن الحاجب، وابن عبد السلام، والقرافي، وابن بنت الأعز، وابن الشاط وغيرهم ممن سيأتي ترجمتهم في شيوخ الشيخ وتلاميذه.

وكل ما سبق يدفع ما ذهب إليه صاحب كتاب الفتح المبين في طبقات الأصوليين[٨] من أن هذا العصر هو أحد عصور الانحطاط العلمي، والجمود الفكري، مستدلاً بأن جهود العلماء في هذا العصر لا تعدو العكوف على ما تركه

---

(1) أعظم مدينة ببلاد الأندلس في وسط البلاد ليس لها في المغرب شبيه. معجم البلدان (٤/ ٣٢٤).

(2) غرناطة: بفتح أوله وسكونه ثانيه، معناها: رمانة باللسان الأعجمي، سميت بذلك لحسنها، وهي أقدم مدينة بكورة البيرة من أعمال الأندلس، يشقها نهر القلزم، يراجع: معجم البلدان (٤/ ١٩٥).

(3) القيروان: مدينة عظيمة بإفريقية، بناها الصحابي الجليل عقبة بن عامر سنة ٥٥هـ، معجم البلدان: (٤/ ٤٢٠).

(4) تبريز: مدينة من أشهر مدن أذربيجان، يراجع معجم البلدان: (٢/ ١٣).

(5) شيراز: بلد عظيم من بلاد فارس، بينها وبين نيسابور ١٢٠ فرسخًا، معجم البلدان: (٣/ ٣٨٠).

(6) طوس: مدينة بخراسان، بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ، بها قبر علي بن موسى الرضا، وهارون الرشيد، يراجع معجم البلدان: (٤/ ٤٩).

(7) يراجع: حسن المحاضرة: (٢/ ٢٦٥).

(8) هو: الشيخ عبد الله مصطفى المراغي -شقيق شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي- في (٢/ ٤٤) الناشر محمد أمين، بيروت، ط/ الثانية، ١٣٩٤هـ.

الأوائل من تراث؛ لمحاولة فهمه، أو اختصاره، أو شرحه، أو جعل الحواشي عليه.

والصواب: أن ما استدل به لا يصلح أن يكون دليلاً لما ذهب إليه للآتي:

١- أن ما فعلوه ليس نقصًا، ولا عيبًا في حقهم، بل يدل على تمكنهم ومقدرتهم العلمية الفائقة التي استطاعوا بها أن يحفظوا لنا مصنفات السابقين مما اعتراها من نكبات المغول، وما تعرضت له تلك المصنفات من حرق أو غرق.

٢- أن العلماء في هذا العصر لم يكونوا يقتصرون على هذا النوع من المؤلفات، بل كانوا أرباب مؤلفات مستقلة، ليست اختصارًا ولا شرحًا، تعد فريدة في بابها من حيث الابتكار، والتجديد والتي من بينها المعاجم اللغوية، مثل تهذيب الأسماء واللغات للنووي، كما ظهرت في هذا العصر الموسوعات العلمية مثل: نهاية الإرب في فنون الأدب للنويري في ثلاثين مجلد[1].

وأخيرًا: ما هو دور القرافي في هذه الحياة العلمية؟ والجواب: لقد تأثر القرافي بهذه الحياة العلمية، وأثر فيها.

أما عن تأثره: فقد أتيح له أن يتلقى العلم عن علماء كبار أجلاء، كانوا قد وجدوا في مصر في عصره، سواء نشأوا في مصر أصلاً، أو نزحوا إليها بعد غارات التتار من بغداد والشام.

وهذا كفل للقرافي أن يأخذ كل علومه التي تعلمها في مصر، وأغناه عن الترحال إلى خارج مصر كما فعل غيره من العلماء.

وأما عن تأثيره: فيمكن الإشارة إليه في النقاط الآتية:

---

(1) يراجع: العقد المنظوم في الخصوص والعموم للقرافي (رسالة دكتوراة منشورة) (١/ ٢٢-٢٣)، للباحث: أحمد الختم عبد الله، دار الكتبي، القاهرة، ط/ أولى، ١٤٢٠هـ.

١- ما وليه القرافي من تدريس بعدد من مدارس العلم في هذا العصر، فكان يدرس بجامع عمرو، وبمدرسة طيبرس[١]، ومات وهو مدرس بالمدرسة الصالحية[٢].

٢- تخرج عليه تلاميذ، كان لهم دور بارز في العلم ونشره، ولا زالت آثارهم شاهدة عليهم، أمثال ابن الشاط، وابن بنت الأعز، والبَقُّوري، وغيرهم، مما سيأتي إن شاء الله في تلاميذ الشيخ.

٣- ما تركه لنا من مؤلفات علمية، جاوزت الثلاثين، منها ما لم يسبق إليه، ككتاب العقد المنظوم في الخصوص والعموم، ومنها ما هو موسوعة علمية كبيرة، ككتاب الذخيرة في الفقه المالكي.

وعلى حد تعبير صاحب الديباج: وقد صارت مصنفاته مسير الشمس، ورزق فيها الحظ السامي عن اللمس، وانعقد على كمالها الإجماع وتشنفت[٣] بسماعها الأسماع[٤]. وسيظهر لنا جزء من ذلك عند التعرف على حياته وسيرته العلمية، وعرض حاله على العقيدة من جهود.

---

(1) أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداري نقيب الجيوش، بجواز الجامع الأزهر، وجعلها مسجدًا لله تعالى زيادة في الجامع الأزهر، وقرر بها دروسًا للفقهاء الشافعية، المواعظ والاعتبار (٣/ ٤٨٨)، ولا زالت هذه المدرسة إلى الآن، وهي في مدخل الجامع الأزهر، من جهة الباب المطل على ميدان الأزهر.

(2) يراجع: الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي: (٦/ ٢٣٣)، دار صادر، بيروت، ١٣٩٢هـ.

(3) يقال: شنف الآذان بكلامه، أمتعها به، المعجم الوسيط (١/ ٤٩٨) ط/ مجمع اللغة العربية سنة ١٣٨١هـ-١٩٦١م.

(4) الديباج المذهب (ص٦٤).

المطلب الرابع
الحياة الدينية في عصر القرافي

العصر الذي كان يعيش فيه الإمام القرافي كان فيه اتباع الديانات الثلاث: الإسلام، اليهودية، والنصرانية.

ولا بد لنعلم مدى الدور الذي قام به القرافي في الدفاع عن العقيدة، أن نعلم الحالة الدينية عند اتباع كل ملة من الملل الثلاث، ونظرة كل ملة إلى غيرها.

أولاً: عند المسلمين:

١- ما تعرض له المسلمون -آنذاك- من تدهور في الحياة السياسية، والاجتماعية، وما لاقوه من غارات الصليبين، والتتار ينبئ بأن بعدًا، كان بين المسلمين ودينهم، ويدلنا على هذا، أن الشيخ العز بن عبد السلام دخل يوم عيد على الملك الصالح أيوب فقال: يا أيوب ما حجتك إذا قال لك الله: ألم أبوئ لك ملك مصر، ثم تبيح الخمور؟ ... الحانة الفلانية يباع فيها الخمور، وغيرها من المنكرات، فقال: يا سيدي هذا ما عملته أنا، وإنما هو موجود من أيام أبي، فقال: أنت من الذين يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة؛ ثم أمر السلطان بإبطال ذلك[١].

لكن المسلمون، وإن بعدوا شيئًا، فسرعان ما كانوا يرجعون إلى المسار الصحيح، ولا سيما إذا نزل بهم خطب، أو قادح، حتى يفرج الله عنهم ما هم فيه[٢].

---

(1) يراجع: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/ ٢١١، ٢١٢)، ت: د/ عبد الفتاح محمد الحلو، ود/ محمود الطناحي دار هجر للطباعة، الجيزة، ط/ الثانية، ١٩٩٢م.

(2) يراجع: البداية والنهاية (١٢/ ٢٩٤).

٢- كان للمعتزلة والباطنية في هذا العصر صولة وقوة أما المعتزلة: فقد وصل بهم الحال أنهم في عصر العزيز ابن صلاح الدين الأيوبي صاحب مصر، كانوا معلميه وعشراءه وخلطاءه، الأمر الذي سول لهم أن يأمروه بأن يخرج علماء أهل السنة -وعلى الأخص- الحنابلة خارج بلاده، وأن يكتب لإخوته بذلك، ولقد هم وما فعل؛ لأن أجله وافاه قبل ذلك[١].

وأما الباطنية، فقد كان نفوذهم قويًا، ففي مصر وغيرها مكثت دولتهم ما يزيد عن مائتي عام، وهذا يعني أنه وإن انقضت دولتهم، فإن فكرهم كان كامنًا في عقول الناس.

وليس خافيًا ما فعله ابن العلقمي من إسقاط الخلافة ببغداد، وما كان يرغب فيه من جعلها شيعية باطنية، ولنفوذ الباطنية أثره في كثرة الصراعات والخلافات بينهم وبين أهل السنة -في ذلك الوقت- مما كان سببًا في إحداث القلاقل[٢].

وأما اليهود والنصارى:

فقد كان تعصبهم لدينهم قويًا وكانت شوكتهم قوية، وذلك للآتي:

١- أنهم كانوا كثرة بالبلاد الإسلامية، وعلى الأخص في بلاد الشام[٣].

٢- لما استولى التتار على البلاد، وأعملوا فيها السيف، ازداد نفوذ اليهود والنصارى؛ لأنهم كان بينهم وبين هولاكو فرمان أمان، ولذا لما دخل التتار بغداد لم ينج من سيفهم إلا من كان يهوديًا أو نصرانيًا، وفي دمشق عظم التتار

---

(1) يراجع: البداية والنهاية (١٣/ ٢٤).
(2) يراجع: المرجع السابق (١٣/ ٢٦).
(3) السابق: (١٢/ ٢٨٨).

دين النصارى، فصالت لهم صولة وجولة[١].

٣- ما كان فيه المسلمون من شغل بما يصيب البلاد من حين لآخر، مع ما يقرره الإسلام من رعاية لأمن هؤلاء والاعتبار بهم. فازداد نفوذهم، مما كان له بالغ الأثر على المسلمين، فلم ينظر اليهود والنصارى إلى الإسلام نظرة الإسلام إليهم، بل بادءوه العداء كلما واتتهم الفرصة.

ففي سنة ٥٧٣هـ حضر قوم من مسلمي المدائن[٢] إلى بغداد، وشكوا من يهودها، وقالوا: لنا مسجد نؤذن فيه، ونصلي، وهو مجاور لكنيستهم، فقال اليهود: قد آذيتمونا بكثرة الأذان .. فاختصموا، وكانت فتنة استظهر فيها اليهود[٣].

وفي دمشق سنة ٦٥٨هـ لما استولى التتار على المدينة، عظم التتار النصارى فدخلوا دمشق، ومعهم صليب منصوب، يحملونه على رءوس الناس، وهم ينادون قائلين: ظهر الدين الصحيح دين المسيح، ويذمون دين الإسلام، وأهله، ومعهم أوان فيها خمر، لا يمرون عند باب مسجد إلا رشوا عنده خمرًا.. ووقف

---

(1) السابق: (١٣/ ٢٨٨، ٢٤٨).

(2) المدائن: هي سبع مدن، وقيل: خمسة، بناها ملوك فارس على حافتي نهر دجلة بالعراق الشرقية والغربية. سميت بذلك؛ لأن كل واحد منهم كان إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جنب التي قبلها، وسماها باسم يخصها، وأول مدينة بنيت في عهد أنوشروان بن قباظ من ملوك فارس، يراجع: معجم البلدان: (٥/ ٧٤، ٧٥)، الروض المعطار في خبر الأقطار، لمحمد عبد العظيم الحميري (ص٥٢٦) ت/ د. إحسان عباس، مؤسسة ناصر، بيروت، ط/ الثانية، ١٩٨٠م.

(3) يراجع الكامل في التاريخ، لابن الأثير، (١٠/ ٨٩)، ت: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ الثانية، ١٤١٥هـ.

خطيبهم فمدح دين النصارى وذم دين الإسلام وأهله[١].

ولم يقف كيد اليهود والنصارى بالإسلام وأهله عند هذا، بل تجاوزوا ذلك إلى كتابة الطعون ضد الإسلام، ففي مصر زمن الإمام القرافي كتب بعض النصارى رسالة يستدل فيها من القرآن على صحة دين النصارى، ويطعن في نبوة محمد ﷺ[٢]، ويبدو أن صولة اليهود والنصارى لم تكن قوية في المشرق الإسلامي فقط، بل كانت قوية أيضًا في المغرب فإذا ولينا وجوهنا شطر الأندلس وجدنا أهل الكتاب هناك يكيلون للإسلام والمسلمين، بما يكيل به أهل الكتاب في بلاد المشرق الإسلامي.

ففي عصر الإمام القرطبي المحدث (ت ٦٥٦هـ) كتب النصارى هناك رسالة يطعنون فيها على الإسلام وينالون فيها من المسلمين[٣] ومجتمع هذا حاله، من ضعف صلة المسلمين بدينهم، وتناحر بين فرقهم، وقوة صولة أهل الكتاب، واتحاد كلمتهم على طمس معالم الإسلام، يحتم على علماء الأمة وقتها، أن يتنبهوا لما يراد بهم فيتصدوا له، وقد فعلوا، والإمام القرافي نموذج من النماذج التي دافعت عن دينها في تلك الآونة.

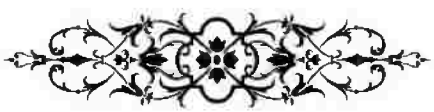

(1) يراجع: البداية والنهاية (٢٤٨).

(2) يراجع: الأجوبة الفاخرة، للقرافي (ص٣) دار الكتب العلمية -بيروت- ط/ أولى، ١٤٠٦هـ.

(3) يراجع: الإعلام بما دين النصارى من الفساد والأوهام: (١/ ٤٣).